الفصل الأول

الخطوات الأولى على أرض الجزيرة العربية

إن أصعب شيء في كل شيء تقريباهو البداية
جان جاك روسو

ظلت منطقة الشرقين الأدنى والأوسط على مدار عقود على مشارف القرنين التاسع عشر والعشرين تمثل مسرحا للصراع الدولي، والنضال من أجل التحرر، والمواجهة الدينية والسياسية، ولم يتمكن المشاركون في هذه الأحداث من أصحاب المنطقة والوافدين عليها من أوروبا وما وراء المحيطات التوصل إلى شيء من الاتفاق إلا بحلول عام ١٩٢٧م، حيث نشأ توازن هش مؤقت بين القوى الوطنية في المنطقة والغرب، إذ وافقت كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا على منح استقلال شكلي لبلاد فارس وأفغانستان ومنح حكم ذاتي للدول العربية التي نشأت بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية، ولكنها اشترطت لنفسها ضمانات للدفاع عن المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية الغربية، بينما اكتفت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بتوفير ضمانات الأمن لمواطنيها ومؤسساتها، كما اكتفت بتنازل الأوروبيين عن ٧٥ , ٧٣٪ من أسهم شركة «عراق بتروليوم كومباني» لصالح شركائهم الأمريكيين، كما تم التوصل إلى حلول مبدئية بشأن استخراج البترول سواء في الكويت أو غيرها من البلاد النفطية الأخرى، حتى أن الأمريكيين قد

تمكنوا في شبه الجزيرة العربية من التغلب على منافسيهم البريطانيين والحصول على امتيازات احتكارية ظهرت أهم تبعاتها السياسية والاقتصادية بصورة جلية بعد الحرب العالمية الثانية.

وبفضل الهدوء النسبي الذي بدأ في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط في عام ١٩٢٧م وامتد حتى عام ١٩٣٥م لم تعد هذه المنطقة في ذلك الوقت مصدرا من المصادر الرئيسة للتوتر الدولي، اللهم إلا فلسطين التي أدى فيها الصراع بين الحركة اليهودية والحركة الوطنية العربية من أصحاب البلاد إلى اندلاع موجة من العنف في عام ١٩٢٩م، وظل الوضع هناك يموج بالتوتر، إلا أن هذه المنطقة بالذات قد شهدت تصادما بين المصالح السياسية والاقتصادية، ليس لدى الدول الغربية المشاركة في الأحداث الدائرة هناك فحسب وإنما أيضا لدى الدولة السوفيتية حديثة النشأة، ولم يهدأ الصراع وما كان إلا أن انتقل من رحاب الصحراء العربية المترامية إلى ساحات القصور المرمرية الفخمة، حيث حل الموظفون المدنيون من التجار والدبلوماسيين ورجال المخابرات محل العسكريين... ولم تكن الظروف المستجدة تتطلب مجرد معارف ومهارات جديدة فحسب وإنما تتطلب أيضا كوادر جديدة، وفي هذه الفترة تحديدا بدأ ابن الشعب الكازاخي نذير تيورياقولوف عمله مندوباً مفوضاً للاتحاد السوفيتي لدى مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، كما كان يطلق من قبل على المملكة العربية السعودية. وكان نذير تيورياقولوف قبل عمله دبلوماسياً قد تلقى تعليما متعدد الجوانب، كما قطع شوطا طويلا في العمل السياسي والصحفي، وشغل مناصب قيادية في أجهزة السلطة السوفيتية. وقد ولد

تيورياقولوف عام ١٨٩٢ في أسرة ميسورة الحال، حيث كان والده يعمل تاجرا للأقطان في قاراغندا، وفي طفولته تلقى نذير -طبقا لما رواه هو عن نفسه- تربية دينية «خالصة» على يد والدته. وكما يتضح من سيرته الذاتية التي كتبها بخط يده فإن أمه هي التي أصرت على إلحاقه بمدرسة «الولي بهاء الدين الشهير في العالم الإسلامي» وهي مدرسة دينية، بيد أن الأم كانت ترحب أيضا بدراسة ابنها في مدرسة «مكتب جديد» الحديثة التي كانت علمانية من حيث الصفة ولكن دينية من حيث طابع التدريس.

أما والد نذير فقد كان في الأصل من جنوب كازاخستان، وسعيا وراء الربح من التجارة انتقل إلى سمرقند ثم بعدها إلى قوقند حيث كان يمتلك منزلين يتكون كل منهما من طابق واحد، وكانت العمولات التي يحصل عليها في موسم القطن مصدرا من مصادر دخله، ولكنه في الأساس كان يمارس عملا فريدا من نوعه في مجال المحاماة، فقد كان يقدم خدمات وكيل «دعاوى» لأهل المنطقة حيث كان يقوم بتحرير الدعاوى إلى المحاكم وكتابة الشكاوي والالتماسات للأجهزة المحلية والعامة الأخرى[1].

وبخلاف الأم المتدينة للغاية كان الأب يميل أكثر إلى الثقافة الدنيوية، حيث كان يقرأ الصحف باللغة الروسية ويحلم أن يكون ابنه واسع التثقف وأن يسير على نهجه ويعمل بالتجارة، لذلك التحق الطفل فيما بعد بما يسمى بالمدرسة الروسية المحلية، وفور تخرجه فيها في عام ١٩٠٥م تم قبوله في مدرسة قوقند التجارية التي أسستها طبقة التجار الروس والشركات التجارية

(١) هي وظيفة تشبه وظيفة (العرضحالجي) (المترجم).

والصناعية، وفي تلك السنوات كانت رياح الثورة الروسية الأولى قد وصلت إلى تركستان وأدت إلى ظهور عدد من التكتلات والجماعات هناك بين الدارسين ورجال الأعمال الذين أطلق عليهم نذير تيوريا قولوف نفسه «البرجوازية الإسلامية الليبرالية»، وكانت هذه الفرق قد نشأت في البداية لنشر المعارف الدينية، ثم أضيف إلى ذلك فيما بعد دراسة تاريخ الثورة الفرنسية والحركة الثورية الروسية، وأصبح الشاب نذير تيوريا قولوف عضوا نشطا في إحدى هذه الجماعات تحت قيادة مولدافسكي عضو حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

وقد وجدت الأفكار الثورية الجديدة صدى في نفس تيوريا قولوف رغم «النزعة السلافية» التي كانت لا تعجبه من قبل قائد الجماعة، إلا أن تيوريا قولوف قد كتب في سيرته الذاتية يقول: إنه قد ضاق ذرعا أيضا بنزعة الوحدة التركمانية والنعرة القومية التي تنامت بشكل كبير لدى السكان المحليين في مدن تركستان في ذلك الوقت، تلك النعرة التي كانت تتسم "بضيق الأفق والمحدودية والحماقة". ومن الواضح أن هذه الفترة بالذات هي التي وضعت اللبنة الأولى لآراء تيوريا قولوف السياسي والصحفي والدبلوماسي، تلك الآراء التي كان يطلق عليها هو نفسه اسم «العقيدة الشعبية». وفي هذا المكان تشكلت دائرة زملاء المستقبل لديه الذين شغل العديد منهم -فيما بعد- مناصب قيادية في الأجهزة الحزبية والسوفيتية في تركستان.

وبعد أن أنهى تيوريا قولوف دراسته بمدرسة التجارة في عام ١٩١٣م التحق بمعهد التجارة بموسكو، الذي أتاح للشاب الطموح فرصا جديدة ليس

في مجال دراسة الاقتصاد فحسب وإنما أيضا لينكب على دراسة اللغات الأجنبية التي بدأ اهتمامه بها وقدراته عليها منذ الطفولة، وكان تيورياقولوف يتقن الروسية كما كان على دراية بالتركية ويتحدث الفرنسية والألمانية، ومع ذلك كان متواضعا للغاية في تقييمه لقدراته في هذا المجال، ففي استمارة سيرته الذاتية كان يكتب أن درجة إتقانه للغات الأجنبية متوسطة، ولم يأل جهدا في تحسين مستواه في المهارات اللغوية طيلة حياته، علاوة على ذلك كان يتمتع بحس لغوي عال، كما كان يقوم بعمليات الترجمة والمراجعة.

وشاءت الظروف ألا يتمكن تيورياقولوف من إنهاء دراسته الجامعية، ففي عام ١٩١٦م أصدرت الحكومة الروسية مرسوما بتعبئة الذكور من أهل تركستان للخدمة في الخطوط الخلفية للجيش، وسعيا وراء مساعدة أبناء منطقته ترك نذير تيورياقولوف دراسته بعد السنة الثالثة بالمعهد ليلتحق بالاتحاد الروسي الريفي العام للعمل كمرشد للتعامل مع أبناء تركستان الذين تم تعبئتهم. وفي هذه الفترة بدأ كذلك عمله السياسي النشط، حيث أسس في مدينة مينسك منظمة سرية هي جمعية «إركين دالا» (السهول الحرة) التي كانت تضم المدرسين والطلاب من ذوي النزعات الثورية، وكانت ترمي إلى المساعدة في النضال القومي التحرري لشعوب تركستان، بيد أن ثورة فبراير لم تسمح للجمعية بالعمل بكامل طاقتها، كما أن هذه الثورة نفسها هي التي زجت بنذير تيورياقولوف إلى صفوف حزب الاشتراكيين الثوريين اليساري في عام ١٩١٧م، ولكن في أكتوبر عام ١٩١٨م انضم تيورياقولوف إلى البلشفيين، ثم تطوع في العام نفسه في الجيش الأحمر، وكان عضوا في مجلس الثورة

العسكري لجبهة تركستان وسكرتيرا للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي بتركستان وعضوا بمكتب آسيا الوسطي لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي.

غير أن ذروة العمل السياسي لتيورياقولوف كانت في عامي ١٩٢١-١٩٢٢م عندما أصبح رئيسا للجنة المركزية التنفيذية لتركستان، ورغم أن هذا الكتاب لا يتناول عمل تيورياقولوف في هذا المنصب إلا أن الأمر يتطلب إلقاء الضوء على بعض الجوانب في هذا الشأن لأنها تفسر لنا أكثر من أي شيء آخر سر نجاح هذا الرجل وفاعلية عمله الدبلوماسي في الشرق الأوسط مستقبلا، فالمراسيم والقرارات التي تحمل توقيعه في هذا المنصب إنما تعكس معرفته العميقة والمذهلة لخصائص الشعوب التي تقطن تركستان وعاداتها، كما تعكس رغبته الصادقة في أن تؤخذ هذه الخصائص والعادات في الحسبان عند تحديث هذا المجتمع، ويكفي هنا أن نذكر المرسوم الصادر بتاريخ ٧ فبراير ١٩٢١م الذي يقضي بأنه "سعيا وراء تحسين الخدمات المقدمة من قبل المؤسسات السوفيتية للطبقات العريضة من أهالي جمهورية تركستان" قررت اللجنة التنفيذية المركزية نقل العطلة الأسبوعية بالمؤسسات السوفيتية إلى يوم الجمعة، أما في المؤسسات التي يعمل بها مزيج من القوميات فيتم تحديد يوم العطلة طبقا لقرار الأغلبية. وهذا ربما يبدو شيئا تافها ولكن مثل هذه التفاهات تتشكل منها هيبة القائد واحترام الشعب له وثقته فيه، وبالفعل فبفضل الاهتمام بمثل هذه «التفاهات» استطاع نذير تيورياقولوف خلال بضع سنوات تحقيق نجاح ملحوظ في العمل الدبلوماسي.

وفي عام ١٩٢٣م تم نقله إلى موسكو للعمل رئيساً لمجلس الإدارة بدار النشر المركزية التابعة للجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي، وفي الوقت نفسه كان يقوم بالعمل بالتدريس كنائب لمدير معهد شعوب الشرق الأوسط. ومن الجدير ذكره أنه في ذلك الوقت قد بدأت قيادة الحزب البحث جديا في مسألة جدوى استخدام معارف تيورياقولوف وخبرته في ميدان الدبلوماسية.

وبعد نقله إلى موسكو دخل نذير تيورياقولوف ضمن صفوف الاحتياط في اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، ولذلك عندما قام كريم حكيموف، الذي كان يسبقه في منصب المندوب المفوض في الدولة السعودية بأخذ إجازة «لأسباب مرضية»، وتقدم في الوقت نفسه بطلب لإعفائه من منصبه والسماح له بالعودة إلى الاتحاد السوفيتي، كان البديل جاهزا فلم يكن هناك أي اعتراضات سواء في اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي أو اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي على مسألة تعيين تيورياقولوف بديلا لحكيموف بحكم درايته الجيدة بالعالم الإسلامي واستعداده لهذا العمل من وجهة نظر اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية.

كان موضوع تعيين تيورياقولوف في هذا المنصب يناقش على أعلى مستوى، فقد توجه كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بمذكرة إلى يوسف ستالين السكرتير العام للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، جاء فيها أن اللجنة المنبثقة عن اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية "قد رشحت الرفيق نذير تيورياقولوف لتمثيل بلاده في الحجاز وذلك باعتباره واحدا ممن هم على دراية كبيرة بالعالم الإسلامي ونمط

تفكيره، وقادر تماما على انتهاج السياسة الصعبة والدقيقة المطلوبة في ممثلينا في الحجاز". ومن الواضح أن مفاوضات مبدئية كانت قد جرت مع تيورياقولوف، لأن كاراخان يحيط ستالين علما أن "الرفيق نذير تيورياقولوف نفسه قد أعرب أكثر من مرة عن رغبته في قبول هذا المنصب الذي يتيح له مراقبة كافة أرجاء العالم الإسلامي، من مراكش حتى إندونيسيا".

ومن المعروف أن إدارة التوزيع باللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي كانت تنظر في الوقت ذاته في ترشيح شخص آخر لهذا المنصب، وهو عمر عليف الذي كان يعمل في ذلك الوقت في شمال القوقاز، ولكن قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية ارتأت أن عليف "رغم مؤهلاته -فهو على دراية جيدة باللغة العربية- فقد لا يستطيع الاضطلاع بهذا العمل، الذي يتطلب معرفة مسبقة ومتعمقة بقضايا العلاقات بين الدول الإسلامية، كما يتطلب معرفة بسياسة الإنجليز في دول الشرق"، وشدد كاراخان نائب رئيس اللجنة على أن أي إخفاق أو فشل من أي نوع في الحجاز من شأنه أن ينعكس سلبا على سياسة الدولة السوفيتية في الشرق برمتها، وربما هذا هو ما دعا اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية أن توصي، بل وتصر على ترشيح نذير تيورياقولوف بالذات لهذه المهمة، استنادا إلى عمق خبرته وتأهله الشامل على حد رأي اللجنة التي اقترحت في الوقت نفسه الاستفادة من عليف في المسار نفسه للعمل بالحجاز ولكن بعد إيفاده للتدرب مستشاراً للبعثة الدبلوماسية هناك.

أيضا مما يؤكد على تقدير الدولة لمكانة نذير تيورياقولوف المهنية هو

مـافعلته إدارات شـؤون العـاملين والأجـهـزة الرقـابيـة بشـأن انتـهـاكاته لنظام الحزب، حيث تعاملت هذه الأجهزة مع الأمر باستخفاف وعدم اكتراث، وهذا شيء يثـيـر الدهشـة طبقـا لمعاييـر ذلك الزمان، والقصة أنه في عام ١٩٢٧م وجهت لجنة التـرويكا الحـزبيـة المنبثـقـة عن اللجنة الرقـابيـة المركزية لحـزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي توبيخا إلى تيورياقولوف على «إهماله في توفيق أوضـاعه الحـزبية»، وذلك أنه بعد "استدعـائه من تركستـان في أكتوبر ١٩٢٧م للعمل باللجنة المركزية للحزب الشـيـوعي السوفيتي... لم يحصل المذكور على بطاقـة الحـزب ولم يسـدد اشـتـراك العـضـوية منذ عـام ١٩٢٢م وحـتى حـينه، وانتهى الأمر بالاقتراح على تيورياقولوف بأن يقوم بسداد المديونية المستحقة عن السنوات الخمس. وبدأت الملحمة الدبلوماسية لتيورياقولوف...

تم تعيين نذير تيورياقولوف مندوبا مفوضا في جدة بموجب قرار هيئة الرئاسة باللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي في الخامس عشر من ديسمبر ١٩٢٧م، رغم أنه لم يتوجه إلى مكان عمله إلا بعد ثمانية أشهر، وقد امـتنعت اللجنة الشـعبـيـة للشـؤون الخـارجـيـة عن إعـلان الخـبـر رسـمـيـا في الصـحافة، استنادا إلى أنه مضى وقت طويل على توقيع قرار التعيين، ومهما كـان الأمـر فإنه بعـد وصـول مـوافـقـة الحكومـة السـعـودية على قـبـول تعـيين تيورياقـولوف طلبت إدارة الشـرق الأوسط من إدارة الشـؤون باللجنة الشـعبـية إصـدار أوامـر عـاجلة بسـرعـة إنهـاء إجـراءات السـفـر للرفـيق تيـورياقـولوف، ودرجة الرفيق تيورياقولوف المذكورة بجواز السفر الدبلوماسي الخاص به هي «وكيل دبلومـاسي وقنصل عـام للاتحـاد السـوفـيـتي في مملكة الحـجـاز ونجد

وملحقاتها»، وفور إنهاء إجراءات السفر للرفيق تيورياقولوف أرجو التكرم بسرعة إبلاغنا بذلك حتى يتسنى لنا إعداد أوراق الاعتماد الخاصة به".

ولم ينته الأمر بالروتين البيروقراطي الذي لا مفر منه، والإجراءات التقليدية التي لابد منها لإعداد أوراق الاعتماد إلى غير ذلك، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها تعيين تيورياقولوف للعمل في السلك الدبلوماسي ولم يكن لديه ما يلزم لهذا العمل من عتاد وقبل كل شيء الملابس الرسمية، وتم على الفور إرسال مذكرة إلى إدارة الشؤون باللجنة الشعبية لطلب "إصدار الأوامر لتفصيل ملابس رسمية مناسبة للرفيق تيورياقولوف وذلك على حساب اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية". نعم كان هذا يحدث في ذلك الزمان الذي يذكرنا به شيء طريف، وهو أن هناك صورة قديمة التقطت عام ١٩٢٤م لمبنى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بشارع كوزنيتسكي موست، تظهر فيها لوحة على واجهة المبنى مكتوب عليها «ي. ك. جوركيفيتش» وهو اسم الترزي الشهير الذي كان يختص بتفصيل الملابس الرسمية وقد اختفت زبائنه بعد قيام الثورة، ولكن موجة الاعتراف الدولي بالاتحاد السوفيتي واتساع شبكة البعثات السوفيتية بالخارج أحيت من جديد نشاط هذا الترزي، حتى أنه ذكر في رواية «العجل الذهبي» الشهيرة التي كتبها إيلف وبيتروف حيث جاء في الرواية "كان هتاف الشجعان يخيم على المدينة، وفي المبنى واسع الأركان، حيث ديوان اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، كان يجلس الترزي جوركيفيتش ليل نهار يحيك الحلل الرسمية لرجال الدبلوماسية السوفيت الذين يستعدون لمغادرة البلاد للعمل في الخارج".

وأخيرا وفي يوم السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٢٨م، "وبعد عناء الانتظار في أوديسا قرابة الأسبوعين"، توجه المندوب المفوض السوفيتي الجديد لدى مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ترافقه زوجته من أوديسا في طريقه إلى اسطنبول على متن الباخرة «لينين»، كان يتحرق شوقا لبدء العمل، وقبل أن تطأ قدمه أراضي شبه الجزيرة العربية انغمس في شؤون البعثة حيث بعث وهو في طريقه إلى عمله أول مذكرة رسمية له إلى قيادة اللجنة الشعبية للشئون الخارجية يقول فيها: "غدا سأرحل برفقة «لينين»، ومازال خط السير الذي تم تحديده في موسكو ساريا دون تغيير، ولن أمر على أنغورا إلا في حالة الضرورة، وإذا التقيت بالرفيق سوريتس في القسطنطينية (الآستانة - المترجم) فسأنقل له كافة رغبات وتعليمات الإدارة، وسأحاول أن أضع معه طرقا محددة لاتصالاتنا مع أنغورا. وأنتهز هذه الفرصة لأذكركم بالرفيق حاج جمعة باي باربيبايف الذي كنت أنوي أخذه معي، أرجو التكرم بالتعجيل بهذه المسألة، فهذا أمر ضروري لاسيما أن عدد الموظفين بالقنصلية العامة في جدة لا يزال قليلا، وقد تم تنسيق المسألة مع الرفيق لودوشفييت الذي بإمكانه أن يتغلب باجتهاده وقوة منطقه على بطء إدارة التوزيع لدينا ويفضل لو تمكن الرفيق باربيبايف من اللحاق بي في القسطنطينية".

وفي نابولي استقل تيورياقولوف الباخرة «فرانشيسكو كريسبي» وفي التاسع والعشرين من سبتمبر وصل بسلامة الله إلى جدة، حيث قوبل في الأراضي العربية بود كبير، وفي الثالث من أكتوبر سلم أوراق اعتماده في مكة إلى الأمير فيصل نجل العاهل السعودي عبد العزيز آل سعود، أما الملك نفسه

فقد أطرى إطراء جما على تعيين تيورياقولوف في رسالة بعث بها إلى ميخائيل كالينين، جاء فيها "لقد كان من دواعي سرورنا أن نتلقى كتابكم المؤرخ في ٩ يوليو ١٩٢٨م الذي تخبرونا فيه عن رغبة حكومتكم الفخيمة في تمتين العلاقات الودية التي لا تزال قائمة بين بلدينا اقتضت تعيين سعادة نذير تيورياقولوف معتمدا سياسيا وقنصلا عاما لدينا، وأنه نظرا لتغيبنا في عاصمة ديارنا النجدية فقد تقبل ولدنا ونائبنا في الحجاز (فيصل) معتمدكم بقبول حسن، ونحب أن تكونوا على ثقة أنه سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وحسن معاملة رغبة في تحسين العلاقات الودية القائمة بين البلدين، وإنه ليسرنا أن نغتنم هذه الفرصة لنعرب لكم عن تمنياتنا في أن تكونوا وشعب حكومتكم الفخيمة على أحسن ما يكون من الرفاء والسعادة".

إن تأكيدات الملك آل سعود بأن رئيس البعثة السوفيتية الجديد سيلقى "كل احترام وحسن معاملة" من قبل الحكومة السعودية والملك شخصيا لم تكن مجرد تنفيذ لما تتطلبه المراسم، فقد تمتع نذير تيورياقولوف بالفعل بمكانة خاصة لدى الملك وحاشيته على مدار الأعوام الثمانية التي عمل خلالها في الحجاز، وقد تضمنت العبارات الرسمية التي جاءت في كلمتي تيورياقولوف والأمير فيصل في مراسم تسليم أوراق الاعتماد استعداد الجانبين للحوار البناء وتدعيم التوجهات الإيجابية التي تم تحديدها في علاقات البلدين في العشرينيات، حيث أكد تيورياقولوف في كلمته بالقول: "... إنني سأسعى بكل السبل نحو تنمية علاقات الصداقة التي سعدنا بنشأتها بين مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها والاتحاد السوفيتي، وفي أدائي للمهام التي أوكلتها إليّ

حكومتي سأعتمد على التعاطف والدعم من قبل صاحب الجلالة الملكية. وأتمنى أن أحوز على الثقة نفسها التي حاز عليها سلفي، واسمحوا لي أن أعرب عن ثقتي في أن الروابط والعلاقات ستتطور بما فيه صالح البلدين".

ورد الأمير فيصل بكلمة قال فيها: "بصفتي نائب صاحب الجلالة الملكية يسعدني أن أرحب بفخامتكم وأتمنى لكم طيب الإقامة والنجاح في العمل، كما يسعدني بالدرجة نفسها أن أؤكد لكم أنكم ستلقون كل العون من قبل حكومة جلالته لتعزيز علاقات الصداقة التي تربط بين بلدينا"، وقد أكدت هذه الكلمة للمندوب السوفيتي الجديد أنه سيتمتع بالثقة التي ينشدها، وكان هذا يرجع بشكل كبير إلى الوضع السياسي القائم في شبه الجزيرة العربية وما يتطلبه من ضرورة أن يحترس النظام السعودي حديث النشأة من دسائس بريطانيا التي كانت تتصف في ذلك الوقت بجبروتها وأن يجد في شخص موسكو من آن لآخر قوة توازن قوة لندن، كما أن دور الاتحاد السوفيتي بالنسبة للملك آل سعود كان يستمد قوته أيضا من أن الحكومة السوفيتية بالذات أول من اعترف به حاكما للدولة الجديدة.

كانت العلاقات الرسمية قد بدأت في عام ١٩٢٤م بين الحكومة السوفيتية والشريف الهاشمي حسين الذي كان يحكم الحجاز آنذاك، وبعد أن اعترف كل طرف بالآخر تبادل البلدان البعثات الدبلوماسية، حيث توجه إلى جدة كريم حكيموف، بينما وصل إلى العمل بموسكو الأمير لطف الله، وفي هذا الوقت نفسه تقريباً كانت قد بدأت حملة آل سعود على الحجاز، التي أسفرت عن سقوط الشريف حسين عن العرش وهروبه، وبقاء ابنه علي مدة

قصيرة في جدة التي كانت محاصرة، ثم في النهاية استسلام الهاشميين وقيام سلطة النجديين الوهابيين في نهاية عام ١٩٢٥م، ممثلين في زعيمهم آل سعود، ولم تغادر البعثة السوفيتية جدة إبان الحصار، ومع وصول آل سعود إلى السلطة تم اعتمادها لدى حكومته بعد أن أبلغه حكيموف اعتراف الاتحاد السوفيتي به ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها، وذلك بالمذكرة المؤرخة في ١٥فبراير ١٩٢٦م التي تضمنت أيضا أن الجانب السوفيتي يرى أن لديه علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة آل سعود. أما الملك الجديد فقد أعرب بدوره عن استعداده لتنمية علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، وفي إبريل من عام ١٩٢٧م لُقِّب آل سعود بملك الحجاز ونجد وملحقاتها بعد أن ضم سلطنة نجد إلى المملكة.

وكان قد سبق هذا الحدث قرنان عاصفان، فتاريخ دولة آل سعود قد بدأ في حقيقة الأمر منذ عام ١٧٤٤م، عندما عُقد تحالف ديني سياسي بين الأمير الطموح بعيد النظر محمد بن سعود والزعيم الإسلامي محمد بن عبدالوهاب، ذلك التحالف الذي ظلت الأجيال المتتالية تلتزم بشروطه. وكان هذا التحالف ينص على أن يحتفظ محمد بن عبد الوهاب وأبناؤه من بعده بالسلطة الدينية، أما السلطة السياسية فتبقى في يد محمد بن سعود وأنجاله، وكان هذا التحالف بمثابة البداية لتاريخ العربية السعودية، كما وضع كثيرا من السمات المميزة لتطورها، وهو التحالف الذي يمكن اعتباره لدرجة ما العماد الدستوري لهذه الدولة، بعد القرآن بالطبع، فرجل الدين الذي كان يبحث عن دعم عسكري من ناحية، والأمير الذي كان في حاجة إلى سند ديني

من ناحية أخرى كانت لديهما رغبة متبادلة في توحيد جهودهما، وبذلك لم يصبح ابن سعود مجرد واحد من أمراء نجد وإنما زعيما يحمل أفكار «الإسلام الحق»، وهكذا التحمت القوة الدينية بالقوة العسكرية.

وجرت حملات عسكرية عديدة أسفرت عن إقامة دولة إسلامية واسعة النطاق، ولكنها واجهت خطر الزوال مرتين، أولاهما في عام ١٨١٨م عندما مُنِيَت قوات الأمير بهزيمة على يد الجيش المصري الذي كان أكثر تقدما، والمرة الثانية في عام ١٨٦٥م نتيجة للصراع الداخلي، ولكن في عام ١٩٠١م تمكن عبد العزيز آل سعود حفيد محمد بن سعود وثلة من الرجال البواسل من الاستيلاء على الرياض واضعا نقطة البداية لإحياء دولة آل سعود.

وجدير بالذكر أن إدراج مقاطعة الحجاز، التي كانت أكثر ازدهارا وانفتاحا على العالم ضمن حدود الدولة، قد تطلب التكيف الأيديولوجي والسياسي مع مستجدات القرن العشرين، وكان الرد على تحدي العصر هو أن ظهر مذهب جديد يقضي بأن كل جديد مقبول مادام لا يتعارض وروح الإسلام، وفي الوقت نفسه أصبح الطريق مفتوحا للاستفادة من منجزات الحضارة الحديثة وتقنياتها، ليس هذا فحسب وإنما أيضا صار السبيل ممهدا نحو الأنماط الجديدة لبناء الدولة، ومع ذلك فالدولة الوليدة "التي كان الدين فيها خاضعا لسيطرة الدولة" ظل يعمل فيها ما يسمى بالإسلام المعارض الذي كان يعارض كل شكل من أشكال رقابة الدولة، وقد انعكس تطور الأحداث بهذا الشكل في المواجهة الشرسة التي اندلعت بين الزعيم السعودي عبد العزيز والجماعات القبلية من المحاربين الوهابيين، وهم من يطلق عليهم «الإخوان»

الذين كانوا يلتزمون بالتقاليد الإسلامية القديمة، وظلوا يقاومون الدولة السعودية الناشئة مقاومة مستميتة حتى عام ١٩٢٩م، عندما قامت القوات الموالية للملك السعودي بسحق تشكيلاتهم العسكرية بشكل نهائي، وساد البلاد -على ما يبدو- توازن نسبي للقوى، وبدأ أخيرا هدوء سياسي داخلي.

كانت إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين حريصة على منع الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها فرنسا وألمانيا وروسيا من الاقتراب من الشرق الأوسط، خشية أن تفقد سيطرتها على مصر وطرق المواصلات إلى الهند، ولعل أوضح مثال كلاسيكي على نشاط الرعايا البريطانيين في المملكة العربية السعودية إبان الحرب العالمية الأولى كان هو العقيد لورنس العرب، رجل المخابرات العسكرية المحترف الذي مارس نشاطه في السعودية عدة سنوات.

لقد كان لورنس العرب نتيجة حتمية تمخض عنها عصره، فقد كانت إنجلترا في حاجة إليه في سياستها الاستعمارية، وأصبح لورنس الذي كان يلقب «بصديق العرب» شخصية لا بديل لها في حاشية الشريف حسين، ثم صار بعد ذلك «الذراع اليمنى» لفيصل أحد أبناء الشريف، الذي كان العديد من القبائل تخضع لنفوذه. وجاءت الدعوة إلى توحيد العرب في نضالهم ضد تركيا، تلك الدعوة التي ألقي بها في الوقت المناسب وبالشكل المناسب لتسمح للثنائي الفريد «فيصل ولورنس» بإثارة الانتفاضة في صفوف الأهالي وتوحيدهم وتكوين جيش ذي قوة قتالية عالية، يعمل لصالح بريطانيا في الشرق الأوسط، وقد أسهم لورنس إسهاماً نشطاً في المكايد التي كانت تهدف إلى تنصيب الأمير فيصل الموالي للإنجليز على عرش العراق، وخلع الأمير

الأفغاني أمان الله من العرش، وكان هذا يعني في واقع الأمر الحفاظ على بقاء النفوذ البريطاني في المنطقة أطول مدة ممكنة.

غير أن المصالح الملحة للمملكة حديثة النشأة كانت تتطلب قدرا أكبر من الاستقلالية في السياسة الخارجية، فحقيقة الأمر أن الدول الأوروبية الكبرى كانت تتوقع أن الإمبراطورية العثمانية مصيرها التفكك لا محالة، ولذا راحت تسعى مسبقا إلى تقسيم ممتلكاتها فيما بينها، وكانت فرنسا وألمانيا هما الأكثر نشاطا في هذا المسعى، حيث بدأ المهندسون الألمان في مد خط حديدي بين برلين وبغداد لنقل الحجاج المسلمين إلى مكة والمدينة، وكان هذا الخط الذي يربط بين برلين والبوسفور يتعارض دون شك والمصالح البريطانية، حيث كان يشكل خطرا من اقتراب الألمان من مصر والهند، وفي الوقت نفسه فإن صدام المصالح الغربية في شبه الجزيرة العربية كان بالطبع في صالح آل سعود وأنصاره، حيث كان من شأنه أن يتيح له إمكانية المناورة لتحقيق أهدافه العسكرية والسياسية.

وكان للأحداث التي وقعت في روسيا في خريف ١٩١٧م أثر كبير على الانتفاضة العربية في شبه الجزيرة، فبعد انقلاب أكتوبر خرجت روسيا على الفور من الحرب مما أثلج صدر ألمانيا وتركيا، وراحت السلطة الجديدة في روسيا تسعى إلى تبصير حلفاء المستقبل بتحركات حلفاء الماضي، فنشرت نصوص المعاهدات السرية الشائكة التي كان للحكومة القيصرية صلة بها، فظهرت تفاصيل اتفاقية «سايكس - بيكو - سازونوف» بصحيفة "ازفيستيا" الروسية في ديسمبر ١٩١٧م، وسارع الأتراك بترجمتها إلى العربية وإعادة

نشرها، وبطبيعة الحال استاء الشريف حسين من الازدواجية الواضحة في موقف الحكومة البريطانية، ولكن شرع الجميع في حل المشكلة بأساليب اللباقة الدبلوماسية، حيث قبل الشريف بثقته المعهودة تفسيرات الإنجليز الذين زعموا أن هذه الاتفاقية لم يتم المصادقة عليها بتاتا، وأن الأتراك قد استخدموها سلاحاً نفسياً لنسف العلاقات البريطانية العربية.

ليس من الغريب أن أهم ما كان يتسم به الموقف في الحجاز ونجد وقت وصول نذير تيورياڤولوف هو تفاقم العلاقات بين المملكة وإنجلترا، وكان السبب الرئيس في ذلك لايزال يرجع -بالطبع- إلى تبرّم لندن من خلع صنيعتهم الهاشمي الشريف حسين، بيد أن ما كان يزيد من حدة الخلافات هو عدم تخلي الإنجليز عن جهودهم الحثيثة في تحصين الحدود بين نجد والعراق التي كانت حينئذ تحت سيطرتهم، وذلك ببناء منظومة من المعاقل والحصون، كما كانت لديهم خطط لبناء خط حديدي بين بغداد وحيفا كان من المفترض أيضا أن يقتطع جزء منه أراضي من نجد، وحدث في نوفمبر من عام ١٩٢٧م أن تسللت فصائل من البدو النجديين إلى داخل الأراضي العراقية المجاورة، وقاموا بهدم أحد الحصون التي كانت لا تزال في مرحلة التشييد، وردا على هذا التصرف شن الإنجليز هجوما جويا بالقنابل على مدن نجد، وحشدوا أسطولا ضخما من قواتهم البحرية في مياه الخليج العربي.

وقد وصل تصاعد التوتر إلى درجة كان يبدو معها من آن لآخر أن المنطقة ستشهد أحداثا عسكرية واسعة النطاق، ولذا أوفد الإنجليز الجنرال كلايتون إلى جدة مرتين، في مايو وأغسطس ١٩٢٨م، للتفاوض مع الحكومة

السعودية، إلا أن مهمته قد باءت بالفشل مما يرجع بشكل عام إلى تشدد الجانب السعودي الذي كان يصر على عدم شرعية بناء العراق للتحصينات على أراضٍ كانت تنص الاتفاقيات السابقة على منع بناء الحصون عليها. وهكذا أرغمت المواجهة مع الإنجليز الملك آل سعود على البحث عن حلفاء على الساحة الخارجية، وكان الاتحاد السوفيتي يتصدر قائمة هؤلاء الحلفاء.

وقد ساعد تدعيم العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلدين على هذا الأمر، إذ أرسلت موسكو في ربيع عام ١٩٢٨م دفعة كبيرة من السلع السوفيتية لاقت رواجا كبيرا في السوق السعودية، ولذلك كانت طبقة التجار في المملكة تنتظر بفارغ الصبر وصول دفعات أخرى من السلع كان من المفترض أن يقوم الاتحاد السوفيتي بتوريدها في أقرب وقت. وهكذا تفوقت العلاقات التجارية بشكل كبير على العلاقات السياسية بين البلدين من حيث قوتها ودرجة التعاون فيها، فقد أبدت الحكومة السوفيتية رغبة في تعزيز علاقات الصداقة مع الحجاز ونجد، وذلك بتوقيع معاهدة بين البلدين ورفع مستوى المندوب السوفيتي إلى درجة مبعوث فكان رد الملك آل سعود أن "توقيع معاهدة مع الاتحاد السوفيتي في ظل الوضع الراهن وهو في حالة حرب فعلية مع إنجلترا قد يعني أنه تحد مباشر للإنجليز، ويدفعهم إلى اتخاذ إجراءات يصعب التكهن بعقباها ضد الحجاز ونجد"، إلى جانب ذلك ارتأى الملك ضرورة التأكيد على أنه يعد علاقاته مع الاتحاد السوفيتي علاقات صداقة على أعلى مستوى، ومع ذلك فإنه انطلاقا من الاعتبارات المذكورة سلفا يرى أن إبرام معاهدة بين البلدين ورفع درجة التمثيل هو أمر سابق لأوانه.

كان واضحا للمندوب المفوض الجديد، الذي تولى مهام عمله للتو، أن الرغبة في عدم دفع إنجلترا لاتخاذ إجراءات غير مرغوب فيها هي بالذات التي اضطرت العاهل السعودي للابتعاد عن توقيع معاهدة سياسية مع الاتحاد السوفيتي، وليس الاستهانة بعلاقات بلاده مع الدولة السوفيتية (وهو ما يبدو على الأقل من كلامه في حواراته مع نذير تيورياقولوف)، كما كان هذا هو أحد الأسباب الرئيسة وراء عدم موافقته حتى نهاية عام ١٩٢٩م على رفع مستوى الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة إلى درجة البعثة الدبلوماسية، وهو ما كان من شأنه أن يعني -بلغة العصر- قيام علاقات دبلوماسية كاملة بين البلدين على مستوى السفارات. وكانت المسائل المتعلقة بعقد الاتفاقية ورفع درجة البعثة وتنشيط التجارة بين البلدين هي ما يتعين على المندوب المفوض الجديد الاضطلاع به تحديدا.

ولابد أن نوفي نذير تيورياقولوف حقه، فهو سرعان ما تكيف مع وظيفته الجديدة، حيث أقام علاقات ثقة مع الدوائر السياسية وطبقة التجار في البلاد، وكان ظهور أي وجه جديد في الدائرة الدبلوماسية -قليلة العدد بمعايير ذلك الزمان- في جدة يعد دائما حدثا بارزا، وبما أن تيورياقولوف كان يمثل"النظام البلشفي" فقد زاد هذا من انشغال الدبلوماسيين الأجانب ورجال أجهزة المخابرات المختلفة به، وكان من بين هؤلاء جون فيلبي والد كيم فيلبي المعروف. كان فيلبي باحثا متخصصا في شبه الجزيرة العربية، واعتنق الإسلام وسمى نفسه عبد الله، وأصبح مستشارا للملك عبدالعزيز آل سعود، وكان يقوم بدور تاجر كبير عاش في الشرق عقودا من الزمن، وعلى دراية بعادات الشرق وتقاليده، واستطاع بمهارة أن يستغل هذا في التخابر، كما

سخر لصالح إنجلترا أيضا تأثيره على الملك وخاصة على ابنه فيصل اللذين وصف العلاقة بينهما في أحد كتبه بأنها "الصراع الأبدي بين حكمة الكبار واندفاع الصغار"[1].

وفي أحد تقاريره الأولى التي أرسلها إلى موسكو يصف تيورياقولوف زيارة فيلبي إليه حيث يقول إنه شخصية مثيرة للاهتمام وداهية إلا أن "بعض حيله مكشوفة تماما"، "فتجارته يكاد يضربها الكساد وليس في استطاعته تغطية نفقاته ومع ذلك لا يزال يعمل بالتجارة"، ولكن في أحد التقارير اللاحقة وصفه بصورة أكثر حدة حيث أفاد دون أدنى شك بأن "... المذكور يُعد عميلا لجهازcommittee of national defense، وينفق ببذخ، ونشاطه الفعلي يتعارض مع ما يقوله، وتوجد مستندات تثبت ذلك، ويجري الآن جمعها لكشف الوجه الحقيقي لفيلبي لتقديمها إلى الملك"، وأكد تيورياقولوف كلامه الذي جاء في تقاريره الأولية بعد صدور أحد المؤلفات الرئيسة التي كتبها جون فيلبي، حيث أرسل إلى موسكو يقول: "إنكم أغلب الظن سمعتم عن كتاب الشيخ عبد الله فيلبي «الجزيرة العربية» (إصدار عام ١٩٣٠م) والذي يكشف فيه أوراقه بشكل سافر للغاية"، ومع ذلك واصل هذا الشخص المثير للاهتمام «استدراج» الزعماء السعوديين فهو -طبقا لتقرير تيورياقولوف- "يجلس في مكة بشكل دائم، في دائرة الملك، وهناك شائعات تقول إنه يحاول الحصول من الملك على امتياز لبناء محطة كهرباء، وأن لندن تعد على حد زعمه قرضا للملك يقدر بثمانمائة ألف جنيه".

(1) Philpy H. ST. J. B. Arabian days, an autobiography. London, R. Hale, 1948.

وبالطبع لم يكن في مقدور المندوب المفوض الحصول على معلومات من هذا النوع إلا مع توافر مصادر موثوق بها في كافة الدوائر في جدة ومكة، حيث كان عدد معارفه يتزايد بشكل دائم، وكان يكثف من لقاءاته واتصالاته مما أتاح له سرعة التعرف على الوضع الداخلي وشؤون السياسة الخارجية للبلد الذي يعمل فيه، أما محادثاته المنتظمة مع فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة فقد منحته الفرصة لعمل تقييم ملائم لحاضر ومستقبل العلاقات السعودية السوفيتية، أما فيما يخص الملك نفسه ونجليه الأمير سعود والأمير فيصل فالاتصال بهم كان صعبا، لأن القصر الملكي كان في الرياض ومكة بينما كانت البعثات الدبلوماسية توجد في جدة. ومع ذلك كان تيوریاقولوف في حالة الضرورة يسافر إلى مكة أو يحاول استغلال مجيء الملك وأعضاء البلاط إلى جدة ليلتقي بهم وجها لوجه. أما الشخصيات رفيعة المستوى بمن فيهم مختلف الوزراء والرتب العسكرية وحتى رئيس البوليس السري فكانوا ضيوفا دائمين لدى نذير تيوریاقولوف، يتبادلون معه المعلومات اللازمة، وبالنسبة لأعضاء السلك الدبلوماسي كان أكثر من توثقت به علاقات المندوب المفوض هو التركي ساني بيه، وقد ساعد على ذلك تلك الصداقة التي كانت سائدة الودية بين الاتحاد السوفيتي وتركيا في عهد كمال باشا، علاوة على معرفة تيوریاقولوف باللغة التركية.

وكان الأمر يتطلب قدرا كبيرا من اللباقة والحذر عند تقديم الهدايا والتذكارات لعلية القوم بالمجتمع السعودي، فقد كان تيوریاقولوف يتمتع عن جدارة بسمعة «الرجل المؤمن» ولذلك كان يؤكد دوما أنه "لا يستطيع أن يهدي مسدسات أو يقدم مشروبات كحولية كما يفعل غيره من الأوروبيين"، ولذا

طلب تزويده بمجموعة من الهدايا من "الأدوات المكتبية والساعات والأقمشة «لتفصيل الملابس للأولاد»... وما شابه ذلك".

وكان أحد وجهاء جدة ويدعى محمد ناصف قد طلب من تيورياقولوف أن يحضر له طاقما من فناجين الشاي المصنوعة من الخزف الصيني، على أن "يقوم بدفع ثمنه صاحب الطلب"، فطلب تيورياقولوف من موسكو أن يرسلوا له هذا الطاقم مبررا ذلك بالقول: "إنني لا أستطيع أن أبيع له الطاقم، وأرى أنه من الأجدى لو أهديته له باسمي، لذلك إذا كانت هناك إمكانية لدى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية فإنني أرجو أن تقدموا لي هذه الخدمة، والمطلوب -تحديدا- هو عدد ١٢ فنجانا للشاي من الخزف الصيني متوسطي الحجم والسعر بأطباقهم، ورجاء أن يكون الطاقم أنيقا و«رقيقا» ما أمكن، فمنزل محمد ناصف منزل كرم يتردد عليه جميع وجهاء ومشاهير المجتمع بدءًا من الملك (حيث جرى آخر حفل استقبال لأعضاء البعثات الدبلوماسية في هذا المنزل) ورجال الدين و«الأعيان»، وانتهاء بالحجاج الجزائريين من ذوي النفوذ، لذلك لابد من اختيار الفناجين بحيث تتناسب والمقام الرفيع".

كذلك طلب محمد ناصف من المندوب السوفيتي أن يحضر له من موسكو أحد الكتب باللغة العربية، فوعده بتنفيذ طلبه، وكان تيورياقولوف يتصور جيدا أين يمكن العثور على هذا الكتاب في الاتحاد السوفيتي فكتب يقول: «هذا الكتاب يمكن الحصول عليه من خلال مكتب الإدارة السياسية العامة (الرفيق بيتيرس أحمد المايف)، ويتعين البحث عن هذا الكتاب في موسكو وكازان وأوفا (في الإدارة الدينية المركزية) وسمرقند حيث توجد المكتبات

الإسلامية التي تمت مصادرتها، وعلى أي حال فأحمد المابيف على دراية أكثر مني في هذا الموضوع. علاوة على ذلك أتمنى لو وصلتني هذه الأشياء (الكتاب والفناجين) على أقرب باخرة من خلال حامل الحقيبة الدبلوماسية".

كان نذير تيورياقولوف مهذبا ولبقا في خطاباته إلى موسكو، ولكنه كان يتسم بالإلحاح، وهو ما يتضح من رسالته التالية: "معذرة على إزعاجكم بأشياء تافهة، ولكن بهذه الأشياء التافهة يمكنني تعزيز علاقاتي «الشخصية». إنني في حاجة إلى دستة من الفناجين بالأطباق (ومرفق طيه عينة للتصميم المطلوب)، وسيتم سداد قيمتها. ويجب العمل على أن تصلني هذه الفناجين على الباخرة «كومونيست» حيث سأسلمها إلى الوالد «أمر بالمعروف». ثانيا أرجو أن ترسلوا لي سماعة طبية للأذن أنوي إهداءها إلى محافظ (قائمقام) مدينة جدة (هو أصم)، وأرجو أن تصلني هذه السماعة أيضا على الباخرة «كومونيست» التي ستبدأ رحلتها من أوديسا إلى البحر الأحمر في النصف الثاني من ديسمبر". وأحيانا كان رجال الدولة السعوديون يتوجهون إلى تيورياقولوف بطلبات ورغبات محددة، وكان ينبغي عليه أن يكتب إلى موسكو بهذا الصدد، ومن هذا القبيل الخطاب التالي : "لقد طلب مني فؤاد حمزة أن أحضر له من الاتحاد السوفيتي قطعا من أقمشة البياضات من الكتان الخفيف، على أن يقوم بسداد ثمنها، ويبدو أن كلامه عن الثمن هو من قبيل التواضع لا أكثر، وقد أجبته أن بواخرنا قلما تمر على جدة للأسباب التي يعلمها ولذلك أحيانا يكون من الصعب علينا نحن أنفسنا أن نحضر من الاتحاد السوفيتي ما يلزمنا. والأمر متروك لكم".

كانت الطلبات والتوصيات من هذا القبيل تأتى مرارا وتكرارا من تيورياقولوف وكان يبغي بها أن تدرك موسكو أن مثل هذه الهدايا رغم قلة ثمنها إلا أنها تتلاءم ومناسبات السعوديين وعاداتهم، ومن شأنها أن تساعد على تعزيز اتصالاته الشخصية، ولاسيما -كما جاء في خطابه إلى رؤسائه الذي يبرر فيه طلباته المتكررة بشأن الهدايا- "إنني قد أقمت علاقات جيدة، وأفكر في عمل الكثير، صحيح أن المسألة صعبة ولكن لا يوجد مستحيل. إن علاقاتنا الشخصية تنمو وتتشعب، وأنا أحاول توسيعها كي أكون مطلعا على الحياة الاجتماعية هنا، وأدرس البلاد وأحسّن من إتقاني للغة العربية. والآن لدى صداقات وعلاقات مع التجار وأعضاء السلطات المحلية في المدن (في مكة وبهرا وجدة) والأئمة وشيوخ البدو ورؤساء الهيئات والمصالح وغيرهم من النجديين... إلخ. وبعض هؤلاء -وخاصة من سكان البادية- لابد أن أقوي من صداقتي بهم ببعض الهدايا الصغيرة طبقا لعادات جميع أهل البادية، ولا يمكن أن أقدم مسدسات أو مشروبات كحولية كما يفعل غيري من الأوروبيين، أنا لا أستطيع وأرى أن سمعتي ومصالحي لا تسمح بذلك.

وفي الوقت نفسه لدي مخزون ليس كبيرا من الهدايا، يمكنني أن أهادي منه المعارف المهمين الذين أستفيد منهم ببعض الهدايا الصغيرة، مثل الساعات والأدوات المكتبية والأقمشة البسيطة «لتفصيل الملابس للأولاد» إلى غير ذلك. وبالمناسبة أثناء تواجد الملك في الحجاز كان الساعي الخاص لديه (والساعي هو الشخص الذي يأتمنه الملك على الكثير من الأمور) ويدعى الشيخ سيد يتردد عليّ بالزيارة، وهو رجل بسيط من قبيلة عتيبة في نجد

وقص علي أن الشيخ عبد الكريم (أي الرفيق حكيموف) كان قد وعده أنه سيهديه منظارا وبوصلة. إذن عندما ناقشت معكم هذه المسألة كنت لا أقصد سوى المعارف الذين لا يمكن التعامل معهم إلا بتعزيزات مادية. وإدارة الشرق الأوسط تعلم جيدا ضرورة هذا النظام في التعامل، ولذلك أرى أنه لا داعي لأن أقدم المبررات. وعندما طرحت هذه المسألة على الإدارة كنت آخذ في الاعتِبار إمكانية حلها حال توافر الإمكانات فحسب (وبخصوص المنظار فقد وعدت أن أرسل خطابا بهذا الشأن إلى حكيموف، بما أنه هو الذي كان من المفترض أن يهديه إلى سيد)".

إن ما يدعو إلى الدهشة هو السرعة الفائقة التي أدرك بها تيورياقولوف طبيعة العلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع السعودي، وتسلسل المقامات بينهم، وهذا يتجلى بشكل خاص عندما نقرأ ما جاء عن الحالات المشابهة على لسان لورنس العرب، ذلك الرجل الثقة العالم بشؤون المنطقة بشهادة الجميع، ففي كتابه الشهير "أقطاب الحكمة السبع" نجده يورد حالة يصف فيها أحد أصحاب فيصل، ويدعى عوضاً، وهو يقوم بتكسير أسنانه الصناعية بحجر لأنه حصل عليها ذات يوم من جمال باشا الوزير التركي الذي أصبح عدوا وقاد الحملات الانتقامية في أراضي الجزيرة العربية، ولكي يجذب الإنجليز عوضاً إلى صفهم استدعوا له خصيصاً "طبيب أسنان من مصر لكي يركّب له أسنانا مصنوعة من خامات حلفائه".

ومما لا يقل أهمية أيضا هو أن تيورياقولوف لم يكن قد درس اللغة العربية حتى ذلك الوقت مطلقا، إلا أنه استطاع إتقانها في مدة قصيرة لدرجة

أنه كان يتناقش في أي موضوع بمفرده دون أن يساعده أحد بالترجمة، وكتب إلى موسكو بنغمة لا تخلو من الفخر يقول لقد بدأت "أتحدث العربية بصورة مقبولة، وأعتقد أنني خلال ثلاثة أو أربعة أشهر سأستغني عن خدمات المترجم، حتى لا يحدث ما يحدث وهو أنك تقول شيئا فيترجمون شيئا آخر، فيخرج الكلام كالطعام بدون «ملح»"، وقد وصل إتقان المندوب المفوض للغة العربية - بشهادة تويميتوف سكرتير البعثة وغيره من أعضاء البعثة الدبلوماسية - لدرجة الاستغناء كلية عن المترجم في حواراته ومناقشاته اليومية، وخلال فترة وجيزة "بدأ يتحدث على سبيل المثال مع محمد ناصف، وفي حضور تويميتوف، عن الحالة الراهنة للإسلام، وعن فلسفة ابن تيميه (مؤسس الوهابية)، وعن مرض السراجة (الذي كان يتفشى في ذلك العام في مكة والطائف) وطرق علاجه".

وفي نهاية المطاف وصل إتقان تيورياقولوف للغة العرب لدرجة كانت تمكنه من الدخول في مناظرات ومناقشات مع علماء الدين في الموضوعات الدينية، ناهيك عن أنه في الاحتفالات والمراسم كان يلقي كلماته باسم جميع أعضاء البعثات الدبلوماسية أمام الملك وحاشيته بهذه اللغة. إن معرفته باللغة العربية جعلته يتميز عن الكثير من الأوروبيين، وكان هذا يلاقي بلا شك تقديرا هو أجدر به من قبل جلسائه العرب، هذا في الوقت الذي كان بوند رئيس البعثة البريطانية يلقي فيه أحاديثه باللغة الإنجليزية فقط، مستخفا على ما يبدو بالنصائح التي لا تخلو أبدا من الفطنة والذكاء والتي تركها ابن بلده لورنس العرب الشهير، الذي وصلت خبرته الطويلة في العمل في الجزيرة

العربية لدرجة أنه وضع منهاجا خاصا يمكن من خلاله تحقيق مكانة وتقدم في العمل مع القبائل البدوية، حيث يقول: "إذا كنت في قبيلة فعليك أن تدرس كل ما يمكنك دراسته عن البدو، عائلاتهم وعشائرهم، أصدقائهم وأعدائهم، أرضهم وتلالهم وطرقهم. افعل كل ذلك وأنت تسمع وتراقب في نفس الوقت. لا تطرح على البدو الأسئلة، وحاول أن تتحدث بلغتهم وليس بلغتك. وإذا لم تفهم حركات الوجه وانفعالاته لدى البدو فلن تفهمهم".

obeikandl.com